۱۶۵۸۴

مجله	الفکر الاسلامی
تاریخ نشر	ذی الحجة ۱۳۸۷
شماره	دهم سال پنجم
شماره مسلسل	—
محل نشر	لبنان
زبان	عربی
نویسنده	عبدالقادر العقبادی
تعداد صفحات	۴۲ - ۴۵
موضوع سرفصلها	منهج القرآن فی تربیة الامة الاسلامیة
کیفیت	
ملاحظات	

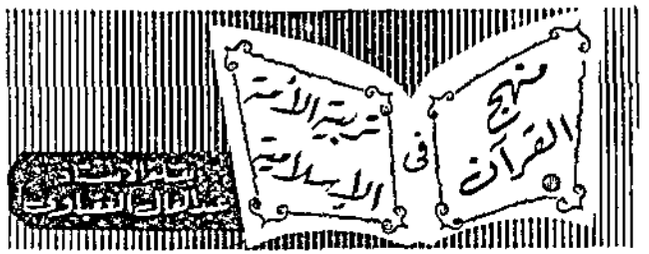

منهج القرآن في تربية الأمة الإسلامية

[illegible]

- ٢ -

١٠/٥/٨٧

في حديثي السابق ذكرت أن القرآن الكريم جاء ليرسم للبشرية طريق السعادة ويهديها للتي هي أحسن .. فكان من مقتضى هذا النهج أن يراعى طبائع البشر ويتمشى مع مادرجوا عليه من مألوف وعادات وتقاليد فلم يحاول أن ينقلهم إلى ما ألفوه دفعـة واحدة. بل سلك معهم سبيل التدرج والترقي وأخذ يسوسهم برفق ولين كما يعالج الطبيب الحـاذق مريضه .. لذلك نزل القرآن الكريم على دفعات مسايرة للحوادث ومجاراة لمشاكل المجتمع العربي في تجددها وتفرقها .. فكلما جدت حادثة أو برزت مشكلة نزل القرآن آية أو آيات لها .. وبالطبع كانت الحوادث تأتى متفرقة والنوازل تقع في أزمنة مختلفة متقـاربة أو متباعدة .. فكان القرآن ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم متناسقاً مع هذه المشكلات وتلك الحوادث فيحل عقدها ويفصل أحكامها. وكذلك جاء مفرقاً ومنجماً وبذلك كان مسلك القرآن فريداً في نوعه وحيداً في بابه لم يسبق بمثله من قبل حتى لقد أنكر عليه أعداؤه « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ؟ » فرد الله عليهم مبيناً الحكمة من هذا النهج المستقيم قائلا : « كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا »

وفي ذلك من الحكمة البالغة وما يتفق مع طبائع الأشياء . فقد كان العرب أمة أميّة لم تقرأ كتاباً ولم تألف نظاماً ولم تحتكم إلى قانون من قبل اللهم إلا قانون القبيلة القائم على القوة الغاشمة فكان مـن الحكمة أن تأتى اليهم الشريعة الإسلامية بالتدريج وبأخذهم بالتيسير في التكاليف والأحكام . وبخاصة وقد كانو حديثي عهد بحياة جديدة لها عرفهـا وتقاليدها التي تختلف في أغلب الأحوال عما جاء به الإسلام .

وقد قسم العلماء نزول القرآن إلى قسمين .. قسم نزل ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب ـ الخاصة . وإنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق وهو كثير في القرآن الكريم ومنه الدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر أو الدعوة إلى خلق كريم والتحذير من خلق ذميم كالدعوة إلى الصدق والأمانة والوفاء بالعهد والتحذير من الكذب والخيانة ونقض العهود ومنه هذا القسم الحديث عن احوال الماضين وما وقع لهم مع انبيائهم وذكر عاقبة أمرهم وبيان ما حل بهم من

عقاب وما نزل بهم من عذاب لمخالفتهم لأنبيائهم وعدم الإيمان بهم . ليكون في ذلك عبرة للمؤمنين وتثبيتاً وتمكيناً وتسلية لرسولنا صلى الله عليه وسـلم .. ومن هذا القسم أيضاً ما كان حديثاً عن أمور مستقبلة تقع كما تحدث القرآن فيكون في ذلك تصديق للرسول وإقامة للحجة على من خالفه وكذبه وقد يكون حديثاً عن ذكر تطورات الإنسان وعن الأدوار التى مر بها . وعن الساعة واليوم الآخر وما يقع فيه من حساب وجزاء مثل قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ .. الخ الآيات » .

القسم الثاني : ما نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب .. وهو إما أن يكون جواباً عن سؤال معين وجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم استفهاماً عن حكم أو نحد من منكر . وإما أن يكون بسبب حادثة وقعت .. فتنزل الآية أو الآيات من قبل الله عزوجل مبينة حكم الحادثة أو مجيبة عن السؤال المعين . وكلا النوعين كثير في القرآن الكريم فمن الآيات التى نزلت جواباً عن سؤال قوله تعالى :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ » « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ » « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » وهكذا .

وأما ما كان بسبب خاص فكثير أيضاً ومنـه آيات الظهار التى نزلت مبينة حكمه في قوله تعالى :

« قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ »

الخ الآيات وكان سبب نزول هـذه الآية خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت فقـد حرمها على نفسه بقوله : « أنت علي كظهر أمي » وكان ذلك تحريماً مؤبداً أول الأمر . فجاءت تشكو لرسول الله وتقول : ان لى منه أولاداً إن ضممتهم إلى جاعوا وإن ضممهم اليه ضاعوا » لأنه كان شيخاً كبيراً لا يقوى على القيام بشئون أولاده وبينما هى تجادل رسول الله وتراجعه والرسول يقول لها : « ما أراك إلا قد حرمت عليه » إذ بهذه الآيات الكريمـة تنزل بحل المشكلة وذلك بالكفارة التى ذكرت في هذه الآيات فكان ذلك تيسيراً على المسلمين ومخرجاً من هذا المأزق الحرج .. ومن ذلك ايضاً حديث الإفك وهو رمى عائشة أم المؤمنين الطاهرة المبرأة من الإثم فنزلت نحو عشر آيات في تبرئتها ووصم من اتهمها بأشنع الأوصاف وبالتهديد والوعيد ومن هذه الآيات قوله تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ » الآيات ـ والآيات التى من هـذا النوع تكاد لا تحصى .. وقد سلك القرآن في بيان الأحكام أساليب مختلفة وطرق متعددة حتى لا تكون على نمط واحد واسلوب لا يتغير كما هو الشأن في القوانين الوضعية بل خاطب الناس بصيغ كثيرة فلم يلتزم

صيغة الأمر والنهى لكى لا يمل الناس هذا الأسلوب من القول . بل تارة يذكر الأحكام الشرعية مقرونة بصيغة الأمر والنهى مثل قوله تعالى : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ » وقوله: « وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا » « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ » « وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ » وأحياناً أخر يسلك طريق الترغيب والترهيب وتارة يبين الحكم بإثبات أن الفعل مكتوب مفروض مثل قوله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى » وتارة يذكر الحكم المنهى بنفى الخير فيه مثل قوله تعالى: « وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا » وأحياناً يذكر الأمر بيان نتيجة المخالفة من الثواب والعقاب مثل قوله تعالى بعد بيان احكام الميراث : « تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ »

والمتمعن في دراسة القرآن الكريم يلحظ ان اسلوبه يختلف في مكة عنه في المدينة اختلافا واضحاً لا من حيث البلاغة والفصاحة والإعجاز بل من حيث الإحكام التشريعية والتكاليف التعبدية ففى مكة نلمس أن القرآن كان معنياً عناية كبيرة بأصول العقائد من الإيمان بالله واليوم الآخر والنهى عن الشرك وعبادة الأصنام . وذلك مراعاة لمقتضى الحال . فقد كان كفار قريش وأهل مكة عموماً يعبدون الأصنام ويصرون على عبادتها وتقديسها كما كان آباؤهم من قبل وينكرون البعث والحساب ويقولون : « إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ » فكان المناسب لحالهم أن يدعوهم القرآن أولا إلى الإيمان بهذه الأصول قبل أن يدعوهم إلى الفروع والتشريعيات التفصيلية . ولذلك نرى القرآن الكريم يلفت أنظارهم إلى خالق هذا الكون ومدبره ويقبح لهم عبادة الأوثان وأنها حزب من الخبل والعبث والضلال . ويضرب لهم ابلغ الأمثال مبيناً زيف عقيدتهم وباطل معبوداتهم وأنها لا تستطيع أن تجلب لهم نفعاً أو تدفع عنهم ضراً بل لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شر عادية الذباب الذى هو أضعف المخلوقات فيقول القرآن :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ »

بهذا الأسلوب الحكيم كان القرآن يحاجج المشركين في مكة ويجادلهم ويقيم لهم الحجج على بطلان عبادة الأصنام . ويبين لهم أنه لا يليق بكرامة الإنسان أن يذل لحجر ويسجد لصنم كما أخذ يعنفهم ويؤنبهم على تقليدهم لآبائهم وجمودهم على معتقداتهم الباطلة ويقبح لهم هذا التقليد الأعمى قائلا : « أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ » ويقول : « وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى

آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ .. قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ »

وقد ظل القرآن على هذه الحال مع كفار قريش نحو ثلاثة عشر سنة لا يتحول عن دعوة القوم إلى الإيمان بالله والإيمان بالبعث والحساب والجنة والنار كما كان يدعوهم إلى البحث والتأمل والنظر في هذا الكون لعلهم يتحررون من تقليد الآباء والأجداد

فلما انتقلت الدعوة الإسلامية إلى المدينة بهجرة الرسول الكريم وأصحابه .. ووجدت لها أنصاراً آمنوا بها ودافعوا عنها وباعوا ارواحهم وأموالهم في سبيل حمايتها والحفاظ عليها . واصبح الإسلام في المدينة ذا سيادة وقيادة بدأ القرآن الكريم يغير اسلوبه فتحدث عن الجهاد والتضحية والفداء وأخذ يشرع الأحكام التفصيلية العملية في العبادات والمعاملات فبين أحكام الصلاة والصيام والزكاة والحج كما أوضح أحكام النكاح ونظام الأسرة ووضع لها الأسس التى تقوم عليها وتضمن لها حياة سعيدة مستقرة .. كما تحدث عن البيوع والمعاملات من إجارة وإعارة ورهن وزراعة وتجارة . كما شرع الحدود والزواجر الرادعة محافظة على أرواح الناس وأموالهم وحماية للمجتمع من التصدع والأنهيار فبين حد الزنا والسرقة والقصاص والكفارات . إلى غير ذلك من الأحكام الكثيرة التى نجدها مبثوثة في السور المدنية مثل سورة البقرة والنساء والمائدة والنور .

وذلك لأن حياة المسلمين في المدينة بدأت في الاستقرار . وأصبح لهم كيان ودولة وسلطان .. فكانوا في أمس الحاجة إلى تشريع يضمن لهم حقوقهم المدنية ويطمئن كل فرد على نفسه وماله وعرضه وإلى قانون يكفل للدولة الجديدة ما تحتاج اليه في دينها ودنياها والتشريع العملى المفصل لا يوجد إلا حيث يوجد المجتمع المنظم الذى يخضع لسلطان الحكم التنفيذى .. فلما أصبح المسلمون على حال تستوجب التنظيم نزلت الآيات القرآنية تبين الحقوق والواجبات وتتحدث عن دقائق التشريعات وتفصل الأحكام وتوضح القوانين المدنية والجنائية . وتحدد العلاقات الإجتماعية والحقوق الشخصية وسائر ضروب العبادات والمعاملات .. وبذلك الأسلوب الحكيم الذى سلكه القرآن الكريم في مراعاة الظروف والملابسات نجح في دعوته ورسم طريق النور للدعاة والمصلحين ووضع الأسس والمبادىء الصالحة لكل زمان ومكان والتى تقوم عليها سعادة البشرية . ولذلك كان القرآن آخر الكتب السماوية ورسالة الإسلام خاتمة الرسالات فلا دين بعد الإسلام وصدق الله العظيم ..

« إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ » « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »